عصور - تصنيف ج- المجلد 21 / العدد01 - جويلية 2022
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال 10.54239/2319-021-001-018 (DOI)

دور المعلم الفرنسي في تكوين النخب الجزائرية وصنع وعي جديد لديهم

The role of the French teacher in forming the Algerian elites And create a new consciousness for them

د. صافر فتيحة*
جامعة أحمد بن بلة وهران1/ الجزائر
saferfatiha2@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/11/14 تاريخ المراجعة: 2021/11/25 تاريخ القبول:2022/02/25

الملخص:

للمعلم دور عظيم في صناعة الأجيال وبناء العقول، فهو المصدر الذي يأخذ منه النشء المتمدرس علمهم، وهو القدوة الذي يؤثر على سلوكهم الدراسي والإجتماعي لأنه يدخل إلى حياتهم مجموعة من المبادئ والقيم والتصرفات التي تؤثر في مسار طلابه . لعب المعلم الفرنسي وكذلك الجزائري الذي تكون في مدارس المعلمين الفرنسية الإستعمارية دورا محوريا في حياة الكثير من الجزائريين وكان له الأثر البالغ على مسار حياتهم المستقبلية، فمن خلال دروسه وعلومه ومعارفه، تمكنوا من الإطلاع على عوالم ومعارف واسعة، ومن خلال الإحتكاك المباشر به اكتسبوا لغة جديدة عرفتهم بأسباب ووسائل الحضارة الغربية، و القدرة على ترقية وتحسين أوضاعهم، فقد كان المعلم بالنسبة لهم نموذج الرجل الغربي الناجح الذي يمكن الإقتداء به، في المقابل كان على المعلم الفرنسي الذي تكون في أعرق مدرسة فرنسية لتكوين المعلمين ببوزريعة، أن يعمل على تكريس سياسة فرنسا الإندماجية وصناعة جيل من الجزائريين متأثر بالحضارة الغربية ومؤمن بفرنسا بلد الحقوق والحريات. فالمعلم الفرنسي كان

*د. صافر فتيحة، جامعة أحمد بن بلة وهران 1

الأداة الثالثة بعد الجندي والمعمر لترسيخ الوجود الفرنسي ووضع الأسس لمجتمع جديد يقبل الوجود الفرنسي والحضارة الغربية. استطاع المعلم الفرنسي أن يوجد له مكانا في وسط المجتمعات القروية المنغلقة بفضل ما كان يقدمه من خدمات لا تقل أهمية على الدروس التي كان يعطيها للأطفال الجزائريين، ومن نصائح للأهالي حول كيفية تحسين منتوجهم الفلاحي أو إرشادهم إلى ما يمكنهم من تحسين أوضاعهم الحياتية.

الكلمات المفتاحية: التعليم، المدرسة الفرنسية، المعلم، السياسة الفرنسية، النخب الجزائرية،الأهالي

ABSTRACT

The French teacher, as well as the Algerian, who was in the French colonial schools of teachers, played a central role in the lives of many Algerians and had a great impact on the course of their future life. his sciences and knowledge, they were able to see vast worlds and knowledge, and through direct contact with him, they acquired a new language, which introduced them to the causes and means of Western civilization, and the ability improve and their conditions. For them, the teacher was the model of a successful Western man who could be emulated. On the other hand, the French teacher, who was in the most prestigious French educational training school in Bouzareah, had to work to perpetuate France's integration policy and create a generation of Algerians influenced by Western civilization and believing in France, the country of rights and freedoms.

The French teacher was the third tool after the soldier and colonizer to consolidate the French occupation, and lay the groundwork of a new Algerian society could accepts the colonial presence and adopts western civilization. The French teacher was able to find him a place in the middle of closed rural communities thanks to the services he rendered, no less important for the lessons he gave to Algerian children, advice to parents on how to improve their agricultural production or to guide them so that they can improve their living conditions

Keywords: education, French school, teacher, French politics, Algerian elite, indigene

مقدمة:

اعتمدت الإستراتيجية الاستعمارية في آلية صناعة النخب السياسية والفكرية الجديدة بالجزائر وتنظيمها وتهيئتها لخدمة مشروعها الاستعماري على المدرسة كأداة فعالة لترسيخ الاحتلال والتأكيد على هيمنة اللغة والقيم الفرنسية. فقد كانت الإدارة الفرنسية بحاجة إلى بعث نخبة من المجتمع الجزائري تكون همزة الوصل بين الإدارة الاستعمارية والجزائريين (الأهالي) باعتبار أن الفرنسيين لا يستطيعون كسب ثقة كل الشعب الجزائري بقدر ما يجيده المثقفون الجزائريون لكونهم جزء منه.(حلوش، 1997. 256) وهذا ما أكد عليه حاكم الجزائر شارل جونار (Ch. Jonnard) عندما كتب عام 1908،"... أن مصلحة فرنسا تكمن في خلق نخبة مثقفة من الأهالي قادرة على نشر التطور والحضارة و إيجاد معابر لاختراق المجتمع الجزائري من أجل إعادة تشكيله في صورة أخرى، مما يمكنها من الدخول في نقاشات وسط المجتمع المحافظ من أجل تفكيك وحدته وتحطيم ثقته بنفسه"(Colonna,1975, 82)، فالنظام الاستعماري كان يعي جيدا أن انتصار السلاح لا يعني النصر الكامل، ولهذا يجب إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان، ففرنسا لم تكن تهدف إلى السيطرة الاقتصادية فقط بل كانت ترمي إلى تحويل الإنسان الجزائري إلى شخص ينفر من لغته وعاداته وماضيه، ويجد البديل في ثقافة وقيم جديدة صنعت الحضارة الغربية وهيمنت على المجتمعات المتخلفة في ذلك الحين. و تترسخ في وجدان هذه النخبة الجزائرية أن فرنسا ليس دولة مستعمرة بل هي دولة الحقوق وبالتالي كلما ارتقى الجزائري في تفكيره ونمط عيشه إلى المستوى الفرنسي كلما كان جديرا بالحصول على كامل حقوقه.

1/ المؤسسات الفرنسية لتكريس الفكر الاستعماري:

أوجدت فرنسا التي استعبدت شعوبا مستضعفة، مبررات لذلك الفعل اللإنساني، ومن هذه المبررات؛ نقل الحضارة لهم، هذه الفكرة التي كررها جول فيري في خطابه أمام نواب البرلمان عام 1885 حين قال:"... أقول أن هناك واجب على الشعوب المتحضرة، عليهم نقل الحضارة للشعوب المتخلفة."(Myreny , 2013, 7)،هذه المهمة الحضارية ستتولى تحقيقها العديد من المؤسسات الكولونيالية من أجل تلقين شباب البلاد المستعمرة قيم الجمهورية وبالتالي تحرير عقولهم من الجهل والتخلف كما كانت

تدعي، ولذلك كان لا بد من التركيز على المدرسة وخاصة في مراحلها الابتدائية لتطبيق سياسة فرنسا الاندماجية.

كانت المدرسة الكولونيالية الآلة المدمرة لكل أوجه أو مظاهر الثقافة المحلية للجزائريين تمهيدا لفعل ثقافي أيديولوجي يملأ الفراغ الذي تسبب فيه الفعل السياسي بعد أن كان قد انتهى من دوره الذي حددته مسبقا السياسة الكولونيالية (بركة ،2003، 34)،فلعبت المدرسة الفرنسية وخاصة تلك التي خصصت للجزائريين (للأهالي) ومدرسة المعلمين دورا أساسيا في تكوين الأجيال الأولى من المثقفين الجزائريين، حيث أقبل الجزائريون بعد فترة من النفور (غانم،6،1987) على التعليم الرسمي لكونه مصدرا للمعيشة ووسيلة من الوسائل التي تضمن الحياة الكريمة لهم بعدما انهارت من حولهم كل المؤسسات التي كانت أيام الحكم العثماني.(انظر التعليق رقم 1)

لم تكن السلطات الفرنسية بحرصها على فتح مدارس للجزائريين، تريد من ذلك تكوين نخبة متعلمة ومثقفة واعية وقادرة على مواكبة ركب الحضارة ومستقلة بذاتها، بل أرادتها أن تكون دائما خاضعة للأقلية الأوروبية، ومسايرة لأهوائها ونظرياتها السياسية، لهذا كان التعليم الذي تقدمه لهؤلاء الجزائريين تعليما بسيطا وضعيفا لا يهدد مصالحهم ووجودهم كأقلية داخل أغلبية رافضة (أنظر التعليق رقم2) ولم يكن هذا التعليم يوما ما من أجل تثقيف وتعليم الجزائريين، وإنما كان من أجل تكوين عناصر جزائرية متشبعة بثقافتها لتجعل منها فئة مؤثرة على مجتمعها،من خلال برامج تعليمية غريبة عن مجتمع له تاريخه وثقافته وتقاليده.(Bouhara, 2001, 61) ففي خطاب أمام مجلس الشيوخ يوم 6 مارس 1891،أوضح جول فيري الهدف من تعليم الجزائريين قائلا:" لا نريد أن نقدم برامج التعليم الابتدائي الجميلة مألوفة لهم (يقصد برامج التعليم المخصصة للفرنسيين بفرنسا والجزائر) ، ولا نريد أن نعلمهم الكثير من التاريخ أو الكثير من الجغرافيا ولكن الفرنسية والفرنسية قبل كل شيء والفرنسية ولا شيء آخر إذا أردتم . وإذا أضفنا إلى ذلك كما جربنا بنجاح في عدد من المدارس، القليل من التدريس العملي والمهني ..... ؛ وهؤلاء السكان الذين هم قبل كل شيء مرهقون، غير سعداء، ومكرسون للعمل اليدوي، سوف يفهمون بسرعة مدى فائدة هذا التعليم الفرنسي المتواضع، في كفاحهم من أجل الحياة اليومية.(Kadri, Ghouati,2006, 8)

2/مدرسة المعلمين ببوزريعة أول صرح في سياسة فرنسا الاستعمارية:

قامت سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر على قاعدتين أساسيتين، هما مدرسة بوزريعة لتكوين المعلمين(انظر التعليق رقم3) و المدارس الابتدائية المخصصة لأبناء الجزائريين (الأهالي) (انظر التعليق رقم 4) فالأولى تعمل على تخريج جيش من المعلمين المتشبعين بالقيم والفكر الغربي الفرنسي القائم على مبادئ الثورة الفرنسية ويؤمن بالتقدم وبرسالة فرنسا الحضارية و بمزايا الحضارة الغربية التي كانت في نظرهم تمثل أرقى الحضارات، وكل ما كان خارجا عنها يمثل لديهم البربرية والظلمات(Pervillé, 1975, 72) وهم مكلفون بنشر قيم الجمهورية، وبالتالي لا تنحصر مهمتهم عند تعليم أبناء الجزائريين بل تتعداها إلى تعميم هذه القيم في الأوساط التي يستقرون بها. فقد اجتمع الرأي العام الفرنسي في الجزائر على ضرورة إنشاء مدرسة لتدريب المعلمين الأوروبيين وهذا بعدما لاحظوا أن هناك نقص في تكوينهم وفي طرق التدريس لديهم ووجدوا صعوبة في توظيف المعلمين الأكفاء، وهذا في رأيهم يشكل عقبة أمام تأثيرهم على جيل الشباب (العربي).فإذا أرادت فرنسا أن تساهم المدارس التي تستقبل أطفال (الأهالي) الجزائريين في الانتشار السريع للغة والأفكار الفرنسية، فمن الضروري تكوين معلمين يعرفون اللغة العربية العامية (الدارجة) ولهم إلمام بالآداب العامة للسكان، وقادرون على تكييف أساليبهم مع العادات الفكرية للجزائريين، ومع ذلك فمن دون إعداد خاص، فإن المعلمين سيظلون غير ملمين بهذه المعارف والأساليب التي يجب استخدامها، من أجل جعل تعليمهم مفيد لجميع أطفال المستعمرة، هذه الاعتبارات دفعت إلى اقتراح تأسيس مدرسة لتدريب المعلمين الفرنسيين والسكان الأصليين في الجزائر(Aissa Kadri,2007, 19-39) حتى يكون تكوينهم في البيئة التي سوف يدرسون بها وعليهم التأثير فيها.

أما الثانية فتسعى إلى نقل هذه القيم إلى أبناء شعب مقاوم، ولا بد من تجريده من ثقافته وقيمه التي إذا ما بقيت ستشكل خطرا على الوجود الأوروبي في الجزائر. فقد أعتقد المنظرون الفرنسيون أنهم إذا ما تمكنوا من تجريد الشعب الجزائري من هويته ومن مقوماته سيتنازل لهم عن أرضه ويخضع للأمر الواقع.

3/ مهام المعلم الفرنسي لإضفاء الشرعية على الاحتلال الفرنسي :

أدى المعلم دوره في التأثير على فكر المتمدرسين الجزائريين، فهو من جهة كان يضفي الشرعية على الغزو العسكري للجزائر بوصفه ناقل للحضارة والفكر الغربي الذي ارتقى بأوروبا إلى مصاف الأمم المتحضر الراقية، ومن جهة أخرى كرس سلطة الاستعمار على المجتمع الجزائري، وخلق وعي جمعي جديد يؤمن بأنه لا بد من التغيير وضرورة التطور والخروج من حالة التخلف ولكن وفق النموذج الفرنسي.

1.3 /أثناء مرحلة التكوين:

تبدأ مهمة المعلم الحضارية كما كان يسميها منظرو الاستعمار الفرنسي منذ مرحلة التكوين، فالمعلم الفرنسي، كما اقترح مدير التعليم الابتدائي بوزارة التعليم العمومي، السيد بويسون (M.Buisson) لا يجب انتقائه من طرف الإدارة المركزية، بل عليه أن يأتي لهذه الوظيفة برغبة وإرادة منه، وأن يختار التدريس بالمستعمرات حبا فيه (Coignet, 1891, 344)، وبالتالي سيكون لديه الاستعداد النفسي لترك وطنه والاستقرار في بلد يرفضه، لا المناخ يناسبه ولا عادات وتقاليد الناس ستوافقه، ثم أن المهمة التي سيتولاها ليست بالسهلة والجذابة لأنها تتطلب رواد إصلاح(Carré,1891, 310) تكون لديهم القدرة للتأثير على من حولهم.

كان المعلم الفرنسي يقضي سنة من التكوين بمدرسة المعلمين ببوزريعة في جو صارم لا يترك للمعلم المتربص فرصة التفكير خارج أطرها أو التعرض لمؤثرات خارجية أخرى، وهذا لتخريج معلمين يمثلون نموذجا للفرنسي المثالي بمبادئه الإنسانية، والذي بفضل عبقريته ومجده أصبح رائدا للحضارة، وهو ما يؤهله لجلب العقول والقلوب إليه.(Kadri, Ghouati,2006, 83)

بمدرسة المعلمين، يتلقى المعلم المتربص مجموعة من الدروس التي تؤهله لتولي التدريس بالمدارس الابتدائية المخصصة للجزائريين (الأهالي)، أولها البيداغوجية الأهلية (Pédagogie indigène) ومن تسميتها ندرك أنها تختلف عن تلك المخصصة للتدريس في المدارس الابتدائية الخاصة بأبناء الأوروبيين، وقد كانت هذه البيداغوجية محل نقاشات واسعة بين منظري التعليم الموجه للجزائريين(الأهالي) في العديد من المؤتمرات التي عقدتها السلطة الاستعمارية من أجل الخروج بسياسة تعليمية تتماشى وأهدافها الاستعمارية، بالإضافة إلى ذلك تقدم للمعلم المتربص دروس في الزراعة

والأعمال اليدوية والحرفية؛ وأخرى في اللغة العربية والأمازيغية، زيادة على دروس في الصحة والوقاية؛ هي معلومات شاملة حول بعض المعارف التطبيبية، التي ستساعد المعلم في المستقبل لعلاج بعض الأمراض البسيطة؛ منها أمراض العيون والحمى والالتهابات الجلدية وتضميد الجروح والحروق ولسعات الحشرات والحيوانات، كما تعطى لهم دروس في كيفية التطعيم من طرف طلاب في الطب بينما يقدم لهم الجانب العملي من قبل أستاذ طبيب بمستشفى مصطفى باشا(Marçais, 1908,188)أما الكتب والخرائط والصور التي كانت تستخدم،فيتم اختيارها من قبل مدير التربية، باقتراح من مفتشي التربية(des inspecteurs d'académie.)

فالمعلم حسب الكاتبة بولات دو شفان (Paulette, Duchavanne) يصبح بعد عملية التكوين عامل بناء، ونجار لتجهيز مدرسته ومنزله، ويتحول إلى طباخ يحضر على مدفأة القسم وجبة ساخنة للجميع، ويلعب دور الطبيب والممرض بحيث يضمد الجراح ويداوي العيون ويوزع الأقراص (الحبوب) ضد الملاريا؛ هذا المرض الذي كان يحدث الكوارث في بعض المناطق دون أن ينسى نفسه بتناول ذلك القرص الأحمر الصغير، يستدعيه الأولياء إلى بيوتهم لعلاج أطفالهم غير المتمدرسين ومنهم البنات، حتى فقيه القرية (الطالب) يستدعيه عندما لا تنفع وسائله وتعويذاته العلاجية، وقد يطلبون منه النصيحة للإعتناء بحيواناتهم، وبعد المدرسة يساعد الكبار فيعلمهم قواعد النظافة، وكيفية تطوير مزروعاتهم أو ينصحهم بإدخال أصناف نباتية أو تقنيات فلاحيه جديدة. وفي بعض القرى كان يؤدي وظيفة سكرتير شيخ البلدية والكاتب العمومي . (Duchavanne, 1996, 36)

2.3 /دوره في تجسيد سياسة فرنسا الإندماجية:

بعد سنة من التكوين (أنظر التعليق رقم 5) يصبح المعلم الفرنسي المتربص على استعداد لأداء مهمته الحضارية في أحياء وقرى الجزائريين (الأهالي)، وبهذا تبدأ مرحلة التلقين والتأثير، فهذا الجندي الذي سيحمل سلاح القلم سيعمل على تجسيد سياسة فرنسا الاندماجية على أرض الواقع،فهو :" خادم قضية الاحتلال" كما وصفه وزير التعليم الفرنسي بارتول (Berthold) آنذاك في كلمة ألقاها بمناسبة افتتاح مدرسة

البليدة (1857)، واعتبر دوره جد مهم بالنسبة للمؤسسة العسكرية لأنه يعمل على نشر الثقافة الفرنسية في أوساط الأهالي. (Lansari, 1995, 34)

كان على المعلم في نظام التعليم الفرنسي الموجه لأطفال الجزائريين(الأهالي)، السعي من أجل إنجاح سياسة فرنسا الاندماجية، عبر نشر اللغة والثقافة الفرنسية، ولم تكن مهمته تكوين متعلمين بقدر ما كان عليه تكوين فرنسيين، لهذا وجب عليه أن يحبب الفرنسية وفرنسا للجزائريين (الأهالي) من خلال تعليم يتوجه إلى قلوب الأطفال لا عقولهم، ووجب عليه أن يبين الدور الحضاري الذي قامت به فرنسا في العالم، وكذلك العمل على تلقين تلامذته الأفكار التي نشرتها وحاربت من أجلها، من خلال الحديث عن الثورة الفرنسية ومبادئها(Démontes, 1923, 188) وفي أيطار النقاش الذي كان دائرا حول تحويل الجزائر إلى أرض فرنسية بشكل كلي، وصعوبة تحقيق ذلك(التعليق رقم 6).

في ظل تمسك الجزائريين بهويتهم وخصوصياتهم كتب الأستاذ موريس وال (Maurice Wahl) يقول :" من أجل تحويل أفكار و عادات عرق (يقصد به هنا الشعب الجزائري) وطريقته في العيش، لدينا وسائل جبارة، تأثيرها مؤكد، دعونا نستحوذ على الأجيال الشابة ونشكلهم كما نتمنى، دعونا نعيد تشكيلهم على صورتنا. بعد جنودنا ومعمرينا، الأمر متروك لمعلمينا لإكمال غزو الجزائر". (Wahl, 1882, 123) في إشارة منه إلى ضرورة الاستعانة بالمعلم كطرف ثالث في معادلة فرنسة أرض الجزائر وشعبها والقضاء على روح المقاومة لديه.

فالمعلم كما كتب موريس بولار (Maurice,Poulard) " ليس فقط ممثلا لفرنسا وإنما كذلك للحضارة، لذلك عليه أن يكون مثلا حيا لنقل القيم والأفكار الغربية التي صنعت الحضارة في أوروبا وفرنسا خاصة، إن هؤلاء المعلمين إلى جانب تعليمهم للأهالي الكتابة والقراءة، يقدمون لهم النموذج الحقيقي للفرنسي الذي يجب أن يحبوه (Paulard,1910 , 35)فالمعلم سيعيد تشكيل وعي جديد لدى تلامذته ومن يحيطون به عبر تقديم أفضل صورة عن الرجل الفرنسي المتحضر من خلال احتكاكه اليومي بهم. لذلك تميز المعلم الفرنسي بالإضافة إلى تكوينه المهني بصفات تجعل تلامذته وسكان القرية يحبونه، و لا يرون فيه ذلك الرومي المعمر فيتجنبوه، بل شخصا يستحق

احترامهم و يمكن أن يثقوا به، وربما يعتمدون عليه في بعض أمورهم و كان عليه أن يجتهد لزرع الثقة والطمأنينة في نفوس تلامذته، ليحررهم من تأثير الخوف والقلق والشعور بالحذر منه، فكان منهم من يعتمد على القصص الهادفة ليوصل لهم الأفكار التي يريد زرعها في أذهانهم، وهذا يذكرنا بشهادة الكاتب الجزائري محمد ديب لمجلة (Le Nouvel Observateur) حيث قال في حديثه عن معلمه الفرنسي:" أطفالا، كنا نخاف من الفرنسيين، كنت لا أقترب منهم أبدا، مع ذلك وجدت نفسي محبوسا مع معلم فرنسي في نفس القسم، لساعات عدة، وخلال خمسة أيام في الأسبوع، ما كان يتسنى لي إلا التأقلم مع الوضع، من حسن الحظ كان هناك ثلاثون من الأطفال مثلي، في وقت الراحة أعود لبيئتي فلم يكن في ساحة المدرسة سوى صبية جزائريون. بالمناسبة أشير هنا أنه في تلك الفترة كنا نجهل هذه الكلمة، جزائري، الجزائر، دزاير، سنكتشف إذن أننا كنا ننتمي لبلد معروف الحدود وننتمي لأرض غير فرنسا". ثم يواصل وهو يصف معلمه:" هذا الرجل سنكتشف يوما بعد يوم أنه أفضل الرجال لسبب بسيط، لم يكن يكمل درسه دون أن يحكي لنا قصة، غالبا ما كانت قصة قصيرة ومضحكة تجعلنا نصيح من الضحك ومن البهجة وكان يشاركنا ذلك بدوره." (Le Nouvel Observateur, N°9, 8-9)

3.3/ وظيفة المعلم الفرنسي لنشر اللغة والقيم الفرنسية:

أخذت رسالة المعلم الفرنسي بالجزائر عدة أوجه فبالإضافة إلى وظيفته التعليمية، أدى أدوارا تربوية و أخرى توجيهية، فقد كان على المعلم في إطار سياسة فرنسا الاندماجية، نشر اللغة والثقافة الفرنسية عبر انتهاج بيداغوجية قائمة بالدرجة الأولى على التلقين المباشر لمفردات اللغة عن طريق ما كان يعرف "بتمارين اللغة" وتتمثل في تعريف الطفل الجزائري في المرحلة الأولى من التعليم بأسماء كل ما يحيط به من أشياء باللغة الفرنسية وكتابتها بالأحرف اللاتينية ثم ينتقل إلى الأفعال والتصرفات، فقد ذكر أحد المعلمين أنه استفاد كثيرا من مطبخ وطباخة المدرسة في هذا الشأن، حيث كان يرسل بعض تلامذته بشكل دوري إلى المطبخ للمساعدة، وهناك يتعلم الطفل الجزائري في تواصله مع الطباخة الفرنسية الكثير من المفردات والكلمات وأسماء الأدوات والخضر والفواكه، فالمطبخ كما قال كان عالما جديدا بالنسبة للأطفال، أين كل

شيء يختلف ولا شيء يحضر مثل بيوتهم. (Colonna,1975, 60) وكانوا حريصين على أن يكتسب تلامذتهم عادات حضارية جديدة لا يمكنهم الاستغناء عنها في المستقبل، وهي عادات بسيطة مثل استخدام الطاولات والكراسي والأواني المختلفة كالشوكة والسكين ..... وأن يغرسوا فيهم حب السكن ببيوت أكثر راحة ....ويلبسون لباسا أفضل وأن يأكلوا طعاما مختلفا متنوع، (Colonna,1975, 61)هكذا كانت المدرسة وقاعة الدرس الخطوة الأولى لاكتساب الأطفال الجزائريين الكثير من العادات والقيم الفرنسية من خلال الاعتماد على التلقين التطبيقي أكثر من النظري، فبالإضافة إلى اللغة الفرنسية يتعلمون الكثير من العادات الفرنسية بداية من قواعد النظافة والوقاية إلى تلك الدر وس التربوية التي يتعرف من خلالها الطفل الجزائر على قيم أخلاقية وتربوية تختلف عن تلك التي اكتسبها داخل أسرته وبين أفراد قبيلته أو قريته، ولأن المعلم أصبح بالنسبة للطفل الجزائري قدوة، ومصدرا للمعرفة والعلم، وبالتالي فإن الإقتداء به و التأثر بما يقوله أو يلقنه له لم يكن محل شك أو رفض من قبل أطفال صغار اكتشفوا بفضله عالما جديدا، يختلف في كل تفاصيله عن واقعهم، فعند هذا المعلم الفرنسي الأجوبة لكثير من أسئلتهم، فقد يسلمهم كتابا يشبع نهمهم المعرفي ويسافر بهم إلى عوالم جديدة مبهرة وجذابة لا تشبه قريتهم، أو يحكي لهم قصة يشد بها انتباههم ويثير فضولهم لما قد يسرب من معلومات تخدم الهدف الذي يسعى إليه.

4.3/سعي المعلم الفرنسي لكسب ثقة وتقدير الأهالي:

كان عامل الثقة أمرا أساسيا بالنسبة للمعلم الفرنسي، فهو يحتاج إليها إذا ما أراد الوصول إلى الأهداف التي سطرتها فرنسا في سياستها التعليمية، وكثيرا ما كان الجزائريون (الأهالي) يضعون ثقتهم في المعلم الفرنسي أكثر من المعلم الجزائري، فالمعلم الفرنسي كما كتب مارسي(Maçais) "يجلب الثقة من حوله أكثر من نظيره الجزائري، الأول فرنسي، لكنه في أكثر الأحيان ذلك الفرنسي الطيب، فاعل الخير، الكريم والمتعلم كما يجب أن يكون. أما المعلم الجزائري (الأهلي) فهو شخص غامض وغير واضح لأنه مسلم يعيش بين الفرنسيين وهو قبائلي أو عربي لكنه لا يتكلم إلا الفرنسية، لقد درس لسنوات لكنه لا يعرف قواعد اللغة العربية ولا كلمة في الشريعة الإسلامية ولا يعرف أيضا شيئا في الأدب العربي ولا التاريخ الإسلامي".(Marçais, 1908, 190). من أجل هذا

كانت اللغة من أساسيات عمل المعلمين الفرنسيين في مدارس الجزائريين، فمعرفتهم باللغة العربية الدارجة والأمازيغية كانتا تسهل عليهم عملية التواصل مع الجزائريين (الأهالي) وبالتالي لا يجدون صعوبة في توصيل أفكارهم، حتى وإن كان بعض المنظرين الفرنسيين للتعليم الخاص بالجزائريين (الأهالي) ضد استخدام المعلمين الفرنسيين للغة العربية الدارجة أو الأمازيغية للتواصل، بل كانوا يصرون على أن يكون التواصل عبر اللغة الفرنسية حتى ولو وجدوا في ذلك صعوبة لأن هذا سيجعل الجزائريين (الأهالي) وخاصة الأولياء يسعون لتعلم اللغة الفرنسية للتواصل مع معلمي أبنائهم، وهي الطريقة التي انتهجتها فرنسا لنشر اللغة الفرنسية بين سكان الأقاليم الفرنسية التي لم تكن الفرنسية لغتها الأصلية ،(Carré, 1891. 289-314)

تحيلنا الباحثة فاني كولونا (Fanny Colonna) في دراستها حول المعلمين في الجزائر ، إلى شهادات الكثير من المدرسين الفرنسيين والكيفية التي من خلالها تمكنوا من كسب ثقة تلامذتهم وكثير من أوليائهم، ومنهم من تمكن من أن يصبح محل تقدير واحترام بين أهالي القرية لأنه استطاع بفضل المعارف التي اكتسبها أثناء التكوين من أن يقدم خدمات جليلة لهم خاصة في الأيام الصعبة أثناء انتشار الأمراض والأوبئة أو إصابة أحدهم بمرض لم يجد له معالجو القرية دواء(الطلبة أو الطالب). وشيئا فشيئا يصبح المعلم الفرنسي عنصر أساسي في القرية ومحل تقدير واحترام.(Colonna,1975, 61) هذه الخدمات خاصة منها التطبيبية كانت تعطي انطباعا لدى المتمدرسين الجزائريين أن هؤلاء الفرنسيون جاءوا ليعلموهم وليمنحوهم أسباب التطور والتحضر، وليتقاسموا معهم حياتهم ومشاكلهم.

في هذا السياق يمكن أن نضيف وظيفة أخرى للمعلم الفرنسي حتى وإن لم يؤدها أو يقوم بها الكثير من المعلمين الفرنسيين، فقد خلف لنا التاريخ، كتابات بعض المعلمين الذي جمعوا معلومات قيمة عن الوسط الجزائري الذي عاشوا به، من علاقات وعادات، وكان لهم الفضل للتعريف باللهجات واللغات السائدة في مناطق مختلفة من الوطن، وخاصة اللغات الأمازيغية، وقد أشاد مارسي (Marçais) بفضلهم وتفانيهم في عملهم حيث كتب:" فالموظفون الفرنسيون في المدارس الابتدائية الخاصة (293 مدرس في عام 1907) ، يستحقون أسمى آيات الثناء، إنهم يمثلون حقا نخبة، يعتبر التعليم

عندهم الأساس حيث الإيمان بالعمل يقودهم إلى التفاني فيه، بكل كرم وثبات، ويجعلهم محل ثقة السكان الجزائريين (الأهالي). وأضيف أن البعض منهم أجرى دراسات علمية حول البيئة التي كانوا يعيشون فيها، فساهموا في تعميق معرفتنا باللهجات الأمازيغية الموجودة لدينا حاليا." (Marçais, 1908, 189)

يمكن أن نذكر كمثال عن هؤلاء المعلمين، ساموبل بيارني(Samuel Biarnay1879-1918)،هذا المعلم الذي تخرج من مدرسة بوزريعة لتكوين المعلمين سنة 1899، ثم زاول وظيفته بقلعة بني راشد (وهران) أين عكف على إتقان اللغة العربية، وبمنطقة واد ميزاب وورقلة وضع دراسة شاملة للهجة البربرية لسكان المنطقة، ثم نشر هذه الدراسة بكتاب تحت عنوان : دراسة حول اللهجة البربرية لورقلة Etude sur le dialecte berbère de Ouargla(1908)، كما وضع مجموعة من الدراسات عن عادات المجتمع الميزابي وخاصة عادات الزواج (memoireafriquedunord.net/2019)وقد مكنته معرفته بعادات القبائل الجزائرية ولهجاتهم من الاستقرار بين القبائل المغربية وسهّل التوغل الاستعماري الفرنسي فيما بعد إلى المنطقة.(انظر التعليق رقم 7)

4/ مكانة المعلم عند بعض المثقفين الجزائريين:

ربما ندرك أهمية ودور المعلمين الفرنسيين كذلك من خلال ما وثقته بعض النخب والمثقفين الجزائريين، حيث اعترفوا لهم بالفضل فيما ألت إليه حياتهم، من نجاح ورقي اجتماعي وعلمي وحتى مهني. فقد تحدثوا عن تلك العلاقة المتميزة التي جمعت بينهم، وكيف أنطبع في ذاكرتهم ووجدانهم ما تعلموه منهم. وقد ذكر إسماعيل حامت(Ismael Hamet) بكل امتنان فضل المعلمين الفرنسيين الذين كرّسوا كثيرا من جهدهم ووقتهم لتعليم الشباب الجزائري المسلم، واعتبرهم ذوي فضل كبير بالنسبة لهم (الأهالي) ، وخص من بين هؤلاء المعلمين ،الأب بيرون وشربونو(Perron de charbonneau) الذي كان من أوائل الذين تولوا إدارة المدرسة العربية-الفرنسية بالعاصمة. فكان من المستشرقين اللامعين و الأوفياء للمهمة التي أوكلت لهم، فكثير من هؤلاء المربين للشباب الجزائري يقول حامت: "لا يوجدون بيننا اليوم بأجسادهم ولكن عملهم لا يزال ظاهرا في التلاميذ الذين قاموا بتكوينهم والذين بدورهم صاروا معلمين للأطفال الجزائريين والأوربيين في نفس الأقسام التعليمية مثل المعلم بلقاسم بن سديرة

والسادة إبراهيم بن فاتح و مجدوب بن قلفات و صوالح محمد والسعيد بوليفة وغيرهم..وهؤلاء كلهم يعطوننا اليوم إحساساً بانصهار الأجناس" (Hamet, 1906, 260)

أما المفكر مالك بن نبي فقد كتب يصف علاقته بمعلمه في سنواته الأولى من الدراسة وكيف حدد معلمه الفرنسي السيد (Martin) ميوله الفكرية. وفي حديثه عن السيد مارتان كتب قائلا :" كان هذا المعلم يثري تلامذته بالمفردات ويطبع في نفوسهم الذوق وفن الكتابة، كان يقرأ لنا أحيانا النصوص الجيدة التي كتبها من أكبر منا والذين قضوا في المدرسة أكثر من سنة." ثم يضيف " لقد طبع في نفسي هذا المعلم تذوق القراءة، ففي مساء كل سبت كان يعير الكتب للتلاميذ، وقد أتاح لي ذلك أن أقرأ كل كتب جول فيرن (Jules Verne) وبعضا من روايات الرداء والسيف." (بن نبي. ،2013، 48) وفي وصفه لنظرة هذا المعلم الفرنسي لمستقبل تلامذته كتب يقول :" فمربوا المستقبل (يقصد بهم المعلمين الجزائريين – الأهالي-) كانوا لدى مسيو مارتان (Martin) أمناء لروح العلمانية" ويضيف مالك بن نبي أن هذه الروح ظهرت بالفعل في نشاط المعلمين الجزائريين حيث طبعت الروح العلمانية حركتهم، وظهر ذلك من خلال صحيفة "صوت البسطاء" (La voix des humbles) لمؤسسها طاهرات والتي تحدثوا فيها عن فولتير وفضائل ثورة 1789 الفرنسية(بن نبي. ،2013، 53)وفي الأخير يعترف أن دروس شيخه مولود بن موهوب في التوحيد وسيرة النبي وتلك التي للشيخ بن العابد في الفقه هي التي كانت تعود بروحه إلى الطريق الصحيح. (بن نبي. ،2013، 66)

بينما تحدث المناضل السياسي فرحات عباس عن أساتذته الذين مر عليهم سواء في ثانوية سكيكدة أو كلية الجزائر ؛ حيث كان همهم نجاح تلامذتهم بقطع النظر عن أصلهم، حتى وإن كان من شذ عن هذه القاعدة من امتاز بعنصرية مقيتة لكن هذا النوع النادر لم ينل من قيمة أساتذته ومن ضميرهم الطاهر النقي، وإذا ما كان قد آمن بمبادئ الجمهورية الفرنسية الديمقراطية، فلأن أساتذته ومدرسيه كانوا يؤمنون بذلك إيمانا تاما وأن حبهم لتلامذتهم المسلمين وإخلاصهم لتعليمهم لا يساويهما إلا حرصهم على التقارب بين الجزائريين وفرنسا.(فرحات،136،2006)

خاتمة:

بغض النظر عن كونه فرنسي أو جزائري، كان للمعلم دور كبير في تشكيل وجدان تلامذته، وتكوين شخصيتهم، وإلى اليوم يظل هذا الدور قائما حتى وإن اختلفت الظروف والوسائل، وبدون شك كان للمعلمين الفرنسيين الأثر البالغ على فئة الجزائريين التي لم تواصل تعليمها الثانوي والعالي؛ حيث كان هذا التأثير يقتصر على تغيير النظرة إلى الأشياء وإلى اكتساب مهارات معرفية وحرفية مكنت الكثير منهم من التواصل بشكل جيد مع مجتمع دخيل هو المجتمع الكولونيالي، أما بالنسبة إلى الفئة التي واصلت تعليمها الثانوي والعالي فتجلى تأثرهم بمعلميهم في مظهرهم وفي طريقة تفكيرهم، وفي تبني الكثير من الإيديولوجيات التي كانت تقدم لهم على أنها نتاج التطور الحضاري والتطور العلمي الذي عرفه الغرب.

وإذا كانت الأيديولوجية الاستعمارية التي بدأت تتغلغل في "فراغ" المجتمع الجزائري بواسطة التعليم، كان للمدرسة والمعلم الأثر البالغ في تكوين جيل جديد من المتعلمين والمثقفين الجزائريين إلا أن هذا الأثر كان محدودا عند البعض منهم، لقد اكتسبت النخب الجزائرية الثقافة الفرنسية بكل ما تمثله من قيم حضارية، لكنها لم تتخل عن قيمها الإسلامية، فهذا المثقف محمد بن رحال وزميله في النضال السياسي الطبيب العربي محمد، أو أستاذ كلية الأدب محمد بن شنب وبلقاسم بن سديرة خريج المدرسة الفرنسية الإسلامية و كثير غيرهم ممن ساعدهم الحظ لدخول المدرسة الفرنسية حافظوا على هويتهم بكل ما تحمله من خصوصيات في الوقت الذي دعوا فيه إلى تعميم التعليم والأخذ بأسباب الحضارة، هدفهم في ذلك تكوين مجتمع جزائري متحضر لكن يحتفظ بخصوصياته الإسلامية ويمجد تاريخه، وإذا كان للمعلم دور في الجزائر المستعمرة، فإنه يتجسد في نشر الوعي بين الشباب الجزائر ليدرك أن هناك فرق كبير بين القيم التي يدعو لها وبين ممارسات الاستعمار الذي استعبد العباد ويريد أن يتركهم دون مستوى التطور والتحضر. لقد ساهم المعلم الفرنسي ودون وعي منه بخلق نخب جزائرية متحضرة وواعية بكل ما يحيط بها من تناقضات و أولها ذلك التناقض بين ما يدرسونه بالمدرسة وما يحيط بهم من واقع مؤلم، وإذا كان للمعلم الفرنسي فضل فقد يعود إلى أنه وضع أقدام الأطفال الجزائريين على أسباب الحضارة وعلمهم لغة فتحت لهم آفاقا جديدة لأنها كانت لغة الحضارة ذلك الحين.

-التعاليق

-التعليق رقم 1: أصبحت المدرسة الفرنسية وسيلة لحصول طلابها على وظائف لائقة تمكنهم من تحسين أوضاعهم الاجتماعية والمعيشية، وصناعة مستقبلهم، فتعلم اللغة الفرنسية وبعض المعارف من الحساب أو الزراعة أو حرفة تعطي الطلاب فرصة الحصول على وظيفة بالإدارة الفرنسية كأعوان أو مترجمين، أو وكلاء قضائيين أو عمال عند الكولون. وقد تسمح للبعض الآخر من تولي مهنة آبائهم ولكن بطرق ووسائل جديدة.

-التعليق رقم 2: تمكن بعض الجزائريين في القرن التاسع عشر وبداية العشرين من التفوق والاستمرار في مسارهم الدراسي بما مكنهم من دخول الجامعة والتخرج منها بشهادات في الطب أو الحقوق والآداب. غير أن عددهم كان قليل جدا. وقد ساعدهم في ذلك مكانة عائلا تهم الاجتماعية وعلاقتها بالإدارة الفرنسية. لكن ما يميزها أنها ظلت محافظة على هويتها وخصوصيتها الجزائرية، وفي العشرينات من القرن العشرين ستشهد الجزائر ظهور نخب جديدة متأثرة إلى حد كبير بالفكر والقيم الغربية والأفكار الفرنسية ومنها من دعت إلى الاندماج كحل للمسألة الجزائرية.

التعليق رقم 3 : مدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة: استحدثت وبمقتضى مرسوم 4 مارس 1864، عرفت بمدرسة بوزريعة لتكوين المعلمين. وفي 1865 عرفت تسجيل 3 جزائريين مقابل 30 فرنسيا، انخفض هذا الرقم إلى طالب واحد في السنة الموالية. بسبب شروط الانتقاء الصعبة على الجزائريين ، وقلة التلاميذ المتمدرسين، ثم مستوى التعليم العام ، وتقلص ميزانية المدرسة بعد سقوط الأمبراطورية . وفي سنة 1883 أنشأ قسم خاص بالأهالي لإعداد معلمين. وبالرغم من عدد الطلبة بالمدرسة حيث بلغ سنة 1914، 217 طالبا فإن عدد الجزائريين منهم بلغ هذه السنة 49 طالبا وطالبة جزائرية. وإلى غاية 1924 لم يتجاوز عدد خريجيها من المعلمين الجزائريين 800 معلم ، 90% منهم من منطقة القبائل أي 720 معلما. **أنظر:** مصمودي (زين الدين) . لمحة تاريخية عن تكوين المعلمين في الجزائر أثناء المرحلة

الاستعمارية والسنوات الأولى من الاستقلال.مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، العدد8 ، 1997 ، ص 76.

Exposé de la situation de l'Algérie, par le gouverneur général,1914, Abel,M,J.,imprimerie administrative, Victor heintz, Alger,1915,p65

-**التعليق رقم 4**. السياسة التعليمية في الجزائر كانت قائمة على الفصل بين العناصر الأوروبية والعناصر الجزائرية، فقد خصصت مدارس لأبناء الأوروبيين في الجزائر هي في الحقيقة نسخة عن المدارس الفرنسية بالميتروبول من حيث التنظيم والبرامج، بينما خصصت مدارس لأبناء الجزائريين(Annexes)تعتمد على بيداغوجية خاصة وتنظيم وبرامج مخصصة لأبناء الجزائريين (انظر: Documents scolaires. Plans d'Etudes et programmes de l'enseignement primaire des indigènes en Algérie,N°114,1890 ظل هذا الفصل في التعليم معمما حتى 1947 عندما تم الدمج بين المدرستين.قبل هذا كان بإمكان بعض الجزائريين الدخول إلى مدارس الفرنسيين لكن عددهم كان محدودا.

-**التعليق رقم 5**. بمدرسة المعلمين ببوزيعة مدة التكوين تختلف بين المتربصين من الفرنسيين و الجزائريين، المعلم المتربص الفرنسي يقضي سنة من التكوين بينما تصل مدة تكوين الجزائريين من ثلاث سنوات إلى أربعة.

-**التعليق رقم 6**. تعرض المجتمع الجزائر للتفكيك والتفتيت في محاولة لإعادة تشكيله وفق النموذج الذي يخدم السياسة الاستيطانية، وهذا بوضع مجموعة من القوانين منها قانون السيناتوس كونسلت 1863 وقانون فارني 1873 الذي جزأ الأراضي الجماعية وادخل نظام الملكية الخاصة للأرضي وعقد الملكلية من أجل تسهيل انتقالها من مالك لأخر.وهو ما مكن المعمرين من الضغط على الجزائريين لبيع أراضيهم وجعل القبائل تتفرق وتتفتت.

- **التعليق رقم 7**. من مؤلفاته الأخرى:

-Étude sur le dialecte des Bétioua du Vieil Arzew (Revue africaine)

- Notice sur le parler des Aït-Sadden (Est de Fês) et celui des Béni-Mguild (Moyen-Atlas marocain) (Revue africaine).
- Six textes en dialectes des Bérabès du Dudès, 1912 (le Journal asiatique)
- Étude sur les dialectes berbères du Rif, 1917, couronnée par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.
- Notes sur les chants populaires du Rif et "un cas de régression à la coutume berbère chez une tribu arabisée" (1915-1916)
- Notes d'ethnographie et de linguistique nord-africaine, , 1924.

قائمة المصادر والمراجع

1. بن نبي، مالك (2013). مذكرات شاهد على القرن. دار الوعي، الجزائر
2. بركة،الهواري(2003) "الصراع السياسي والمسألة الثقافية في الجزائر". أطروحة ماجستير، جامعة وهران ، قسم علم الاجتماع.
3. حلوش، عبد القادر (1997). السياسة التعليمية في الجزائر 1871-1914. دار الأمة، الجزائر .
4. غانم، احمد(1992) طلائع الفكر السياسي في الغرب الجزائري. صحيفة الحق الوهراني 1911-1912 . مخبر العالم العربي والعلوم الإجتماعية. جامعة وهران ،الجزائر.
5. مصمودي ،زين الدين.(1997) لمحة تاريخية عن تكوين المعلمين في الجزائر أثناء المرحلة الإستعمارية والسنوات الأولى من الإستقلال.مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة قسنطينة، (8) ، صص73-91
6. فرحات، عباس (2006)، ليل الاستعمار،ترجمة أبو بكر رحال، منشوراتANEP، الجزائر
7. Lansari, Ahmed (1995).La littérature de l’entre deux guerre, published, Paris
8. Exposé de la situation de l’Algérie, par le gouverneur général (1914) Abel,M,J.,imprimerie administrative, Victor heintz, Alger.
9. Kadri, Aissa, et autre (2007). Histoire du système d’enseignement colonial en Algérie.ENS Edition, Lyon.
10. Kadri,Aissa Ahmed,Ghouati.(2006). Enseignements et instituteurs en Algérie. Hall, Archives ouvertes.fr, institut Maghreb-Europe.
11. Bouhara, Abderrezak .(2001). Les Viviers de la libération. Edit. Casbah, Alger.
12. Clarisse,Coignet.(1891).A propos de l’instruction des indigènes en Algérie. La revue pédagogique, Paris, Tome 18(Janv.-Juil.).pp338-345
13. Documents scolaires.(1890). Plans d’Etudes et programmes de l’enseignement primaire des indigènes en Algérie(114).
14. Démontes, Victor(1923). L'Algérie économique, les populations algériennes Alger , tome II,
15. Colonna, Fanny (1975). Les instituteurs Algériens 1883-1913- .OPU, Alger.
16. Hamet, Ismael(1906). Les musulmans Français du nord de l’Afrique. Edits .Armand colin, Paris.

17. Carré, Irénée (1891). De la manière d'enseigner les premiers éléments du français aux indigènes dans nos colonies et dans les pays soumis à notre protectorat. La revue pédagogique, Tome 18(Jan-Juin),pp289-314
18. Carée, Irénée (1891).La méthode pratique de la langage destinée aux élèves des Provences ou l'on ne parle pas Français. La revue pédagogique, tome18.pp481-487
19. Guy, Pervillé (1975).Les Etudiants Algériens à l'université Française1880-1962. OPU, Alger.
20. Marçais ,M.(1908). Rapport sur l'enseignement primaire des indigènes. Congrès de l'Afrique du nord tenu à Paris du 6 au 10 Octobre 1908. Compte rendu des Travaux, questions indigènes, Tome 2, pp180-205
21. ,Myreny, Toril.(2013). Le système scolaire en Algérie Coloniale ; l'école primaire, une institution assimilatrice. Mémoire de Master, Université d'Oslo.
22. Paulette, Dechavanne (1996). l'enseignement avant1962. Conférence prononcé Le 24 Oct.1992 à Aix en Provence. L'Algérianiste, N°75.
23. Poulard, Maurice(1910). l'enseignement pour les indigènes en Algérie .imprimerie administrative,GO,gosso.
24. Wahl, Maurice(1882). L'Algérie, Paris, Librairie Baillère et Cie.
25. Le Nouvel Observateur, N°9 spéciale La guerre d'Algérie 30ans après, Paris
26. http://www.memoireafriquedunord.net/biog/biog09_Biarnay.htm